إن ترى الشر مستفيضاً فهوّن
لا يحب الله البؤوس المملولا
وبطول الأيام تعرض لو نبْـ
ـها على الناس بكرة وأصيلا
فذليل بالأمس صار عزيزاً
وعزيز بالأمس صار ذليلا
ولقد ينهض العليل سليماً
ولقد يسقط السليم عليلا
رب جوعان يشتهي فسحة العمـ
ـر وشبعان يستحث الرحيلا
وتظل الأرحام تدفع قابيـ
ـلاً فيردى ببغيه هابيلا

□□

ميادين الحياة

دفع الإسلام أبناءه بتلك الروحانية إلى ميادين الحياة، بعد أن عرّفهم بمعاني الحياة:

1 ـ دفع الأبطال إلى الفتح وجعل الرفق رديفه.

2 ـ ودفع أُولي الهمم إلى الملك، وجعل العدل حليفه.

3 ـ ودفع العلمَاء إلى التربية وجعل الإصلاح غايته.

4 ـ ودفع الأغنياء إلى بناء المآثر، وجعل عزة الأمة نهايتها،

فسدَّ كل واحد ثغرة وأبقى فيها الآثار الخوالد:

* أبقى الأبطال تلك الفتوحات التي هي مفاتيح ملك الإسلام.
* وأبقى الخلفاء تلك السير التي هي جمال الأيام.
* وأبقى العلماء تلك الأسفار الكريمة التي هي عطر التاريخ.
* وأبقى الأغنياء هذه المعاقل الباذخة التي هي بيوت الله....[1]

❑❑

شان الإنسان في الحياة

إن شأن الإنسان في حياته وفكره شأن البحَّار والمسبار، ليس في يد البحار وسائل يسبر بها مختلف الأعماق في المحيط؛ لأنه غير محتاج إلى ذلك.

إن جلّ همه أن يعرف طول الحبل الذي يشده المسبار ليستطيع أن يعرف الطريق الذي يمخر فيها ويختار العمق الكافي لسفينته، فلا تصطدم بشيء فتغرق. والإدراك البشري هو هذا المسبار، فالرجل كما يسوم حياته محتاج إلى أن يعرف على وجه الدقة طول هذا المسبار[2].

❑❑

(1) آثار، محمد البشير الإبراهيمي، (2/ 136).
(2) لمحات عن الفكر السياسي، البارودي، ص: 180.

تأملات في الحياة

لعل المتغيرات الدائمة في الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في رحلة الحياة.... تجعلك تحلم لك ولغيرك أحلاماً وردية زاهية... مرة تقترب بك من اليأس.... فتتمسك بصبر الصابرين.... هذا الصبر والأمل والحلم واليأس وكأنها جميعاً ـ طبق سلطةً ـ نتناوله على الطبيعة كل يوم، وليست هذه شكوى ولكن في اعتقادي أن الإنسان الواقعي عليه معايشة الحياة بحلوها ومرارتها، محاولاً ألّا ينسى إيجابياتها قبل سلبياتها، فالحياة تعذب من يراها من خلال منظار أسود فقط، أو أبيض فقط، فهي في طبيعتها وحقيقتها غزيرة الألوان بحيث لاتحصى ولا تقف عند حد....

ولهذا جدير بنا أن نروض أنفسنا على معايشة اليوم بل الساعة واللحظة معاً بكل ما تحمل من دوافع المعاناة والأمل[1].

❑❑

دور الإنسان في الحياة

من الناس من يظهر على صفحة الحياة، ثم يختفي كالرغوة التي تصنعها الأمواج في عراكها الدائم مع الرياح. ومنهم من يزوّد بقوى أكبر، ومواهب أبرز، فيمر بالدنيا ثم

(1) مجلة الدوحة، السنة الخامسة، العدد(53)، 1980.

ينسلخ عنها، وقد ترك آثاراً تدل عليه وتحمل طابعه، تبقى بعده حيناً.... ثم تدركها طبيعة الفناء بعد أيام أو أعوام أو أجيال فتتلاشى وتبيد.

تتخلف الآثار عن أصحابها
حيناً ويدركها الفناء فتتبع

وهناك طائفة أخرى من الناس طرقت أبواب الوجود، انسابت مع تيار الحياة المتجدد ولاحقت موكب الزمن المنطلق فبقيت على حين فني غيرها.

وما زالت بعد قرون متطاولة على موتها المادي تعيش بيننا توجّه الأحياء إلى الخير، وترسم للحائرين المنهج، وكأن فكرها الثاقب وقلبها الخافق وصوتها الجهير لم يعدُ عليه البلى[1].

□□

الحياة سير الدائم

وهذا خطاب موجه إلى المسلم المعاصر لكي يُشمر عن ساعده، ويقوم من سباته ليضطلع إلى دوره المرتقب في بناء وحمل الأمانة.

(ازدد كل يوم علماً قليلاً أو كثيراً، واعمل كل يوم خيراً صغيراً أو كثيراً، وقل كل يوم كلمة طيبة طويلة أو قصيرة،

(1) في موكب الدعوة، لمحمد الغزالي، ص: 90، ط 3، 1965، دار الكتب الحديثة.

واعتقد نية خيرة هيِّنة أو خطيرة، واجعل إن قدرت وقتك إلى الخير منهجاً وأيامك إلى الكمال درجاً، واحذر أن يتشابه عاماك بل أن يستوي يوماك، واجهد أن تُربي زيادتُك في البر على زيادتُك في العمر فإرباء العمر على العمل فناء، وإرباء العمل على العمر نماء. الحياة مسير فلا تقف، وتحليق فلا تُسِفّ، وتقدم فأقدم، وأقدم فلا تحجم. ألا ترى المنار يلوح، والداعي يثوِّب ويصيح؟ ألا تسمع الجرس ينبه الغافلين والحادي يحث السائرين؟.

إن هذه الحياة سيرٌ حثيث من يبطئ فلا يَلُمْ غير نفسه
وصعود إلى المعالي دؤوب خاب من كان يومه مثل أمسه[1].

□□

المتفائل والمتشائم

المتفائل: ينظر إلى الوردة ولا يرى أشواكها.

المتشائم: يحدِّق بالأشواك ولا يرى الوردة.

* فضل بعض الأثرياء أنهم يُعلموننا احتقار الثراء.

(جبران خليل جبران)

□□

نظرة في الحياة

إن فلسفة الحياة تملي على المرء أن لا ينتظر من الناس كثيراً، ولا يتطلع منهم إلى الأكثر، وغنى النفس يعني القدرة

(1) النفحات، عبد الوهاب عزام، 132، ط1، 1953 ـ القاهرة.

على العمل الجاد المثمر لا السلبية والاتكالية، وانتظار الكثير من الغير، والذي إذا تعذّر كان مثبطاً للهمم وإذا توفّر كان مثيراً للطمع.... ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه، ومعرفة النفس هي المفتاح لأبواب النضوج الشخصي، وغاية نضج الشخصية إدراك حقيقة العمل في بواعثه وأسبابه، لا في غايته ومراميه، وأساس نجاح العمل التنظيم الذاتي الفكري. إن بعض الناس يغدقون على ذواتهم صفات لا يتميّزون بها متباهين بالجميل مستكرين للرذيل... وفحص النفس امتحان لقوة الإرادة، وهو أصعب الحوار مع الذات، وأول مدخل إلى تجنب المساوئ إتباع الحسنات، وإذا كان الجرح مؤلماً فلأن الشرّ أحياناً ضروري لبقاء الخير؛ ولأن الإنسان الصغير تدوسه سنابك الخيل والعملاق تمرّ من تحته جحافل النصر والشجاع يموت مرة والجبان يموت ألف مرة.

فلا تقسُ على نفسك بهوانها، ولا تجرح كرامتك بامتهانها، فإن النفس إذا هانت سقطت، والسقوط ليس له قاع، وإن الكرامة إذا انتهكت ضاعت، وضياع الكرامة يعني فقدان الهوية[1].

□□

مذهب الزيات في الحياة

سُئل الكاتب المعروف أحمد حسن الزيات عن مذهبه في

(1) أضواء على النفس البشرية، د. الزين عباس عمارة، ص: 164، ط1، 1978، دار الثقافة، بيروت.

الحياة فكتب يقول:

مذهبي في الحياة يتميز بالاستقامة والوضوح وبفضلهما بلغت الغاية التي قصدتها، لم أبلغ علية الثراء الضخم، ولا الجاه العريض ولكن بلغت علية عيش الرضى والبالُ الرضي والذكر الحسن. وسعادة حقة أقرب إلى الرضى والسكينة منها إلى المال والمنصب. حرصت أن يكون مذهبي مستقيماً حتى كانت العقبة الضخمة تعترض فأقف دونها طويلاً أفتتها بمعولي الصغير حصاة حصاة على أن تذل وتزول، وحرصت أن يكون مذهبي واضحاً حتى كانت المشكلة الصعبة تعترض فيكون حلها يسيراً بشيء من النفاق وقليل من المصانعة، ولكني أنفر من أولئك كلهم وأحاول أن أعالجها بالصراحة والصدق والصبر فتنحل بعد أن تترك في النفس من الأثر ما يتركه الجرح في الجسد من الندوب، ولكن هذه إذا بقيت تظل مثاراً للذة من لذات الروح تشيع فيها العزة والحرية والكرامة.

ومن مذهبي أن أسقط الماضي من حساب الحاضر فور انقطاعه، فلا أحزن على ما فاتني فيه، ولا أتألم لما ساءني منه، وللإيثار جانب عظيم من مذهبي في العيش، فأنا أؤثر صاحبي في المجلس والحديث وقد أوثره بالمنفعة لأن شعوري بأن أُدخل السرور عليه أو أجلب السعادة إليه أجمل في نفسي من شعوري بأن أتصدر المكان أو أتفرد بالكلام أو أتغلب في الإرادة أو أختص بالفائدة. ومن مذهبي أن أكره الظهور وأمقت الادعاء وأنبذ الفضول فأنا أعيش في عزلة وأعمل في صمت وأسير في قصد وهذه الخلال قد تعوق عن الوصول في

عصر كهذا العصر أعماله تظاهر وأقواله هُتاف ووسائله إعلان وغاياته شهوة، ولكن الذين يندفعون إلى الأمام بهذه الدوافع لا يلبثون أن يفقدوا الأجنحة المصنوعة والمحركات المستعارة فيقفون حتى يفوتهم أولئك الذين يمشون على أقدامهم الطبيعية أو يسيرون على مراكبهم الخاصة، من غير أن ينالهم خِزيٌ أو يمسهم لغوبٌ. هذا مذهبي سننته على هدي الفطرة التي فطرني الله عليها ولو كان في الإمكان أن أورثه ولدي لسعدت به حياً وميتاً[1].

❑❑

فلسفة حياة

* مسائل الفلسفة الكبرى هي:
* مسألة الإله.
* مسألة الحياة بعد الموت.
* مسألة السعادة في الدنيا.
* مسألة الخير والشر والحرام والحلال.

والقصيدة التالية تنتهي بالقارئ في كل مسألة من هذه المسائل إلى رأي نوجزه هنا:

فأما في مسألة الإله: فخلاصة القول أن الإله الموجود في

(1) مجلة الرسالة الإسلامية، السنة(2) العدد(13)، 1969م، تصدرها وزارة الأوقاف في العراق.

كل مكان كفيل أن يصل إليك إذا أنت لم تصل إليه، وأن يعرف حقيقتك إذا عجزت أنت عن معرفة حقيقته، وفي هذا عزاء لمن رام العزاء.

وأما في مسألة الحياة بعد الموت: فخلاصة القول أن خيال الإنسان لن يحيط وصف تلك الحياة أو لن يصل في شأنها إلى وصف يستقر عليه، فهو لا يرضى أن تكون الحياة الأخرى كهذه الحياة الدنيا؛ لأنه يطمع أبداً إلى كمال بعد نقص وغبطة بعد ألم، وهو لا يرضى أن تكون الحياة الأخرى مبدلة مستحيلة؛ لأنه متى تغير شعوره وتبدلت مداركه، ومقاييس نظره أصبح مخلوقاً آخر وأصبح النعيم الذي يرجوه كأنما هو نعيم مكتوب لإنسان سواه...

فهو يحب أن يغير حياته ولا يحب أن يغيرها في وقت واحد.... والخروج من هذه الحيرة لن يكون إلّا على حالة فوق ما يعقل وفوق ما يتخيل.

وأما مسألة السعادة: فالرأي في القصيدة أن ترك الدنيا كما يتركها عباد الهند خطأ، وأن التهالك عليها كما يتهالك عليها عبّاد الحضارة خطأ كذلك، وأياً كان الحرمان الذي يمني به لإنسان فيشقيه ففي الدنيا ولا ريب نعم جزيلة لم يحرمها قط إنسان يحبها ويشتاقها، وتلك هي محاسن الطبيعة والإعجاب بالجمال حيث كان.

وأما مسألة الخير والشر والحلال والحرام: فالرأي في القصيدة أنه لا حرام في الجمال ولا حلال في القبيح فالفعل

القبيح هو الفعل الحرام، ومن تجنب أن يشوّه جميلاً أو ينقص كاملاً فهو في حل من أن يصنع ما يشاء:

الغرام المِلكُ والملكُ الضياع
هات لي الحسن الذي ليس يضيع
ليلة قمراءَ، أوسحرَ سماع
أو قصيداً راق، أو زهر ربيع
قال قومٌ زينة الدنيا خداع
قلت خيرٌ! بالذي نشري نبيع

□□

زاهد الهند نعى الدنيا وصام
أنا أنعاها ولكن لا أصوم
طامع الغرب رعى الدنيا وهام
أنا أرعاها ولكن لا أهيم
بين هذين لنا حدٌ قوام
ولْيَلُمْ من كل حزب من يلوم

□□

أيها السائل: ما بعد الممات؟
يمم الصحراء وانظر قفرها
ما وراء القبر في قول الثقاة
حالة تحمد يوماً سرها

لستَ بالراضي حياة كالحياة
لا ولا ترضى حياةً غيرها

□□

يعبد الأقوام ما يخشونه
وأنا أعبد ما لست أخاف
ليس ينسى الله من ينسونه
فعلام البحث فيه والخلاف
إن وصلتم أوقفتم دونه
لم يقف دون مقام أو مطاف

□□

شرعك الحسن فما لا يحسن
فهو لا يحلو، وإن حلَّ الحرام
ليس في الحسن أثامٌ بيِّنٌ
غير مسخ الحسن أو نقص التمام
ما عدا هذين مما يمكن
فاستبحه وعلى الدنيا السلام[1]

□□

أسفت على صنفين من الناس

يقول الشيخ محمد الغزالي، وهو شخصية إسلامية معروفة

(1) ديوان عباس محمود العقاد، ص: 305، الهيئة المصرية للكتاب، 1973.

بأفكاره وتجاربه القيمة في مجال الدعوة الإسلامية، وذلك من خلال تعامله واحتكاكه مع شتى صنوف الناس في الطبائع والميول في دربه الطويل لإبلاغ الناس المبادئ الإسلامية، ولقد توصل إلى نتيجة بعد هذا الجهاد المقدس مفادها على أن الناس ليسوا على وتيرة واحدة فهم أشكال وأنواع وألوان ومعادن. يقول أحد العلماء: ففيهم القادر المكين، وفيهم القابل للانخساف والمتداعي للانهيار، ما ذنبنا إذا رضي أصحاب هذه الأسماء والألقاب أن يكونوا مظاهر للفكرة التي ينكرها الإسلام، وتحاربها المسلمون بالألسنة والأقلام؟ لا ذنب لنا في ذلك، وإنما الذنب لمن جعل نفسه عرضة لوطء الأقدام ووخز الأقلام. ولقد شخّص الشيخ الغزالي صنفين من الناس الذين رضوا لأنفسهم التقوقع في هذه الدائرة الضيقة ولم يَدعُوها إلى التجاوز من هذه الوصمة التي لاصقت بأنفسهم: يقول شيخنا الجليل: صنفين من الناس أسفت عليهم:

* صنف تلمس في قلبه عاطفة حارة، ورغبة في الله عميقة، وحباً لرسول الله ﷺ بادياً ومع ذلك تجده ضعيف البصر بأحكام الكتاب يعلم منها قليلاً، ويجهل منها كثيراً ويغريه بالتعصب للقليل الذي يعلمه.

* وصنف تلمس في عقله ذكاء وفي علمه سعة، وفي قوله بلاغة، يعرف الصواب في أغلب الأحكام الشرعية، ويؤدي العبادات المطلوبة، ولكنه بارد الأنفاس بادي الجفوة، غليظ القلب، يكاد يتمنى العثار لغيره كي يندد بأغلاطه ويستعلي هو بما أوتي من إدراك للحق، فكان يغضبني من أصحاب العاطفة

ما يغلب عليهم من جهل وما يشين غيرتهم من عكوف على الخرافات، وعجز عن استيعاب الأحكام واكتفائهم بحب سلبي طائش، وهؤلاء يصدق عليهم... ما رواه ابن الجوزي بسنده: عن ابن عباس ﷺ أنه دخل على عائشة ﷺ فقال: أرأيت الرجل يقل قيامه ويكثر رقاده... وآخر يكثر قيامه يقل رقاده؟ أيهما أحب إليك؟

قالت: سألت رسول الله ﷺ كما سألتني فقال ﷺ: «**أحسنهما عقلاً**»، فقلت: يا رسول الله ﷺ إنما أسألك عن عبادتهما؟

فقال: ﷺ «**يا عائشة إنهما لا يُسألان عن عبادتهما إنما يسألان عن عقولهما، فمن كان أعقل كان أفضل في الدنيا والآخرة**».

ويغيظني من الآخرين استكبارهم بما هدوا إليه من صواب في بعض الأحكام العقدية والفقهية واستهانتهم بآفات القلوب وفراغها من حرارة الإقبال على الله، والحنو على عباده.

والمسلم الكامل رجل نيّر الذهن والقلب معاً، حاد البصر والبصيرة جميعاً، تتعانق فكرته وعاطفته في معاملته لله، ومعاملته للناس، فلا تدري أيهما أسبق: صدق أدبه أم حسن معرفته؟ ولا تدري أيهما أروع: خصوبة نفسه الجياشة أم فطانة عقله[1]؟ لأن كل ما يأتي به المسلم عظيم ومتقن في

(1) الجانب العاطفي عن الإسلام، محمد الغزالي، ص: 6، ط1، 1961م، مطبعة السعادة بمصر.

غاية الإتقان والجمال، فكل خطواته مستقيمة يعرف الغاية المنشودة منها ولا تأسره مطامع الحياة الفانية، وإنما يتخطاها إلى ما هو أسمى وأشمل حتى ليثبت دوره الموكل إليه من قبل رب العالمين وهو دور الخلافة على الأرض فهو منفرد من بين جموع من الخلائق، ويعرفه الناس من خلال حركاته وسلوكه اليومي على ظهر البسيطة جاء ليحافظ على البناء الذي أتمه الرسول الأعظم ﷺ للإنسانية كافة التي تسير بالأنانية إلى شاطئ الأمان والسلام، فلا يقف في قارعة الطريق وإنما دأبه السير بالسفينة إلى أمام مهما واجهتها الرياح وأهوال الطبيعة.

❑❑

خصوم الدين

يقول الأستاذ محمد تقي القمي: الدين قوة منذ وجد، ومثل تلك القوة كمثل آية قوة تظهر في الأرض ينبري لها المعارضون والخصوم بغية القضاء عليها ويتجه إليها، الطامعون والمستغلون رغبة في استغلالها لمصالحهم: والمتبع لتاريخ الأديان يلاحظ أن أخطر خصوم الدين في كل عصر: جاحد ينكره، أو مستغل يريد أن يُسخِّرهُ

والويل للدين أن يستغل في خدمة أشخاص أو سياسات، والتاريخ يحدثنا عن الحروب الدامية بين الدين ومنكريه، كما يحدثنا عن ملوك حكموا باسمه لا اعتناقاً لمبادئه بل استغلالاً لقوته الهائلة كي يظهروا على عدوهم ويطمئنوا على مجدهم

ونفوذهم[1]. قال الإمام علي ﷺ: قصم ظهري رجلان:

* عالم متهتك.

* وجاهل متنسك.

هذا ينفر الناس بتهتكه، وهذا يضل الناس بتنسكه.

❑❑

الناس في معترك الحياة

إن الناس في الحياة العامة صنوف شتى:

بعضهم يعيش لا يدرك إلّا أن الحياة قدرت له، فهو يتحرك فوق الأرض كيفما اتفق.

وبعضهم تحجبه هموم الرزق، فهو لا يعرف إلّا تحصيل القوت له ولأهله، ناسياً أن الله خلقه لحكمة، واستعمره في الأرض لأجل، وكلفه في عمره المحدود بأعمال.

وآخرون يبحثون عن السرور في مظانه ليستمتعوا بما أمكن من لذات الدنيا وأغلب الناس كذلك، يتخلف عليه الليل والنهار، وهو محاصر بمآربه وضرب موعداً للقاء رهيب[2].

❑❑

أضحكني وأبكاني ثلاث

قال الصحابي الجليل أبو الدرداء ﷺ: أضحكني ثلاث

(1) مع الله: دراسات في الدعوة والدعاة، محمد الغزالي، ص: 239، مطبعة السعادة بمصر، 1959.

(2) المصدر نفسه، ص: 13.

وأبكاني ثلاث: أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه. وضاحك ملء فيه ولا يدري أراضٍ الله عنه أم ساخط عليه؟

وأبكاني: فراق الأحبة محمد ﷺ وحزبه، وهول المطلع، والوقوف بين يدي الله يوم تُبلى السرائر ثم لا أدري: أأصير إلى الجنة أو إلى النار؟

قال أبو سعيد الحسن البصري رحمه الله: لا يزال الرجل كريماً على الناس حتى يطمع في دينارهم، فإذا فعل ذلك استخفوا به، وكرهوا حديثه وأبغضوه، وروي أن أعرابياً سأل أهل البصرة: مَنْ سيدكم؟

قالوا: الحسن البصري.

قال: بم سادكم؟

قالوا: احتاج الناس إلى علمه، واستغنى هو عن دينارهم.

فقال: ما أحسن هذا[1].

حبذا لو عُلّقت هذه الحكمة على جدران غرف العلماء ليعقلوها.

□□

اصطياد الدنيا بالدين

إن اصطياد الدنيا بالدين مأساة عزّت على الإساءة، وليس

(1) مع الله: دراسات في الدعوة والدعاة، محمد الغزالي، ص: 203.

لها إلّا الله، وهذا الذي جعل الشاعر أحمد الزين يرفع عقيرته بهذه الأبيات:

ودعين في الدنيّ والدين يشكو
فعلاتٍ كالكفر منه لعينهْ
نال ما يشتهي من الجاه باسم الدِّ
ينِ زوراً في الأمة المسكينه
فقدَ الدين واليقين وصار الـ
ـمال والجاه دينه ويقينه
تَخَذَ الإفك والتملّق ديناً
فجميع الأديان تلعن دينه[1]

□□

رجال الدين تحت المجهر

إن آفة رجال الدين ـ حين يصبح الدين حرفة وصناعة لا عقيدة حارة دافعة ـ أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، يأمرون الناس بالخير ولا يفعلونه، قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2]، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[3]، ويؤوّلون

(1) مع الله، ص: 191.
(2) سورة البقرة، الآية: 44.
(3) سورة النساء، الآية: 46.

النصوص القاطعة خدمة للغرض والهوى، ويجدون فتاوى وتأويلات قد تتفق في ظاهرها مع ظاهر النصوص ولكنها تختلف في حقيقتها عن حقيقة الدين، لتبرير أغراض وأهواء من يملكون المال والسلطان كما كان يفعل أحبار اليهود[1].

❑❑

بناء النفوس

وأصحاب الدعوة إلى دين الله، وإقامة النظام الذي يتمثل فيه هذا الدين في واقع الحياة خليقون أن يقفوا طويلاً أمام ظاهرة تصدي القرآن المكي خلال ثلاثة عشر عاماً لتقرير هذه العقيدة.

فلما تقررت هذه العقيدة ـ بعد الجهد الشاق ـ تطهرت الأرض من الروم والفرس لا ليتقرر فيها سلطان العرب ولكن ليتقرر سلطان الله، وتطهرت النفوس والأخلاق وزكت القلوب والأرواح، دون أن يحتاج الأمر إلى الحدود والتعازير التي شرعها الله، إلّا في الندرة النادرة ؛ لأن الرقابة قامت هناك في الضمائر.

وبعد فلا بد أن نقول كيف عالج القرآن المكي قضية العقيدة في خلال الثلاثة عشر عاماً... إنه لم يعرضها في صورة نظرية ولم يعرضها في صورة (لاهوت) ولم يعرضها في صورة جدل كلامي، كلا، لقد كان القرآن يخاطب فطرة

(1) في ظلال القرآن لسيد قطب، (1/ 85)، ط7، 1971، دار إحياء التراث، بيروت.

الإنسان، كان يستنقذ فطرته من الركام.

كان القرآن وهو يبني العقيدة في ضمائر الجماعة يخوض بهذه الجماعة معركة ضخمة مع الجاهلية ورواسبها في ضميرها وأخلاقها وواقعها ، وإنه لمن الضروري لأصحاب الدعوة الإسلامية أن يدركوا أن مرحلة بناء العقيدة التي طالت في العهد المكي على هذا النحو، لم تكن منعزلة عن مرحلة التكوين العملي للحركة الإسلامية، والبناء الواقعي للجماعة.

لم تكن مرحلة تلقي (النظرية) ودراستها ولكنها كانت مرحلة البناء القاعدي للعقيدة وللجماعة وللوجود الفعلي معاً، وهكذا ينبغي أن تكون كلما أريد إعادة هذا البناء مرة أخرى.

وهكذا ينبغي أن تطول بناء العقيدة وأن تتم خطواتها على مهل وفي عمق وتثبيت. إن القرآن لم يقضِ ثلاثة عشر عاماً كاملة في بناء العقيدة بسبب أنه كان يتنزل للمرة الأولى... كلا، فلو أراد الله لأنزل هذا القرآن جملة واحدة، ثم ترك أصحابه يدرسونه ثلاثة عشر عاماً أو أكثر أو أقل حتى يستوعبوا (النظرية الإسلامية)، ولكن الله سبحانه كان يريد أمراً آخر، كان يريد منهجاً معيناً متفرداً، كان يريد بناء الجماعة وبناء العقيدة في وقت واحد، وكان يريد أن يبني الجماعة والحركة بالعقيدة. هذه هي طبيعة هذا الدين، فهو بهذه الطبيعة وضع الأمة المسلمة في مرة يريد أن يعاد إخراج الأمة المسلمة للوجود كما أخرجها الله أول مرة[1] هي واقع الجماعة الفعلي

(1) في ظلال القرآن (7/ 92).

وأن يكون واقع الجماعة الفعلي هو صورة حية للعقيدة، وأن يبني العقيدة بالجماعة والحركة. كان يريد أن تكون العقيدة.

❑❑

بناء الإنسان

يُحكى أن المأمون دخل على ولده، وهو ينظرُ في كتاب أدب فقال له: يا بُنيّ ما في كتابكَ؟ فقال: بعضُ ما يُحسِّنُ اللفظ، ويُؤنسُ الوحشةَ، ويَلذُّ العين، وتُعْرَفُ به قيمة الإنسان، فقال له المأمون: يا بني، الحمد لله الذي رزقني ذريةً فيهم مَنْ يرى بعين قلبه أكثر مما يرى بعين جسمه[1].

❑❑

تربية النفوس بالبلاء

ولا بد من تربية النفوس بالبلاء، ومن امتحان التصميم على معركة الحق، بالمخاوف والشدائد وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات، ولا بد من هذا البلاء ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة، كي تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف.

والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليف، لا يعز عليهم التخلي عنها عند الصدمة الأولى.

فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الذي تعزُّ به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعز في نفوس الآخرين، وكلما بذلوا من

(1) أنس المنقطعين (1/ 284).

أجلها كانت أعز عليهم، وكذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها وصبرهم على بلائها. إنهم عندئذٍ سيقولون في أنفسهم:

لو لم يكن ما عند هؤلاء من العقيدة خيراً مما يبتلون به وأكبر، ما قبلوا هذا البلاء ولا صبروا عليه، وعندئذ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها مقدرين لها، مندفعين إليها، وعندئذ يجيء نصر الله ويدخل الناس في دين الله أفواجاً.

ولا بد من البلاء كذلك ليصلب عود أصحاب العقيدة، فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومذخور الطاقة، وتفتح في القلب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن في نفسه إلّا تحت مطارق الشدائد، والقيم والموازين والتصورات، وما كانت لتصح وتستقيم إلّا في جو المحنة التي تزيل الغبش عن العيون والران عن القلوب، وأهم من هذا كله: الالتجاء إلى الله وحده حين تهتز الأسناد كلها وتتوارى الأوهام وهي شتى، ويخلو القلب إلى الله وحده لا يجد سنداً إلاّ سنده، والنص القرآني هنا يصل بالنفس إلى هذه النقطة على الأفق: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[1].

□□

(1) سورة البقرة، الآيتان: 155، 156.

تنقية النفوس

أدب السلوك شريعة من شرائع الإسلام وغاية رسالته، وترجم عنها قوله ﷺ: «**إنما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق**» ومعنى هذا أن الدعوة الإسلامية لم تجئ لتخلق في النفوس أخلاقاً لم تكن أو لتنشئ فيها عواطف لم توجد، وإنما هي تنظيف وتنقية من دخائل السوء ووساوس الشيطان، إن ذلك أشبه ما يكون بعملية اقتلاع الحشائش الغريبة التي تظهر مع النبات فتضعف الأرض وتؤثر أثرها السيئ في الزرع والثمر.

والإسلام قادر على أن ينقي النفوس ويطهر الأرواح ويهذب الطباع ويقيم مجتمعاً متجاوباً متناسقاً، وأهم تعاليم الإسلام وأبرزها هو ما يتجه إلى خلق الشعور الجماعي المتجاوب مع الناس المحس بإحساسهم، وهذا الشعور الذي من شأنه أن يجعل الإنسان جزءاً من المجتمع يسعد بسعادته، ويشقى بشقائه، وذلك ما يشير إليه ﷺ: «**مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تتداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**» والإنسان الذي يصل حسه الاجتماعي إلى هذا الحد هو الإنسان الذي تعمر به الحياة ويسعد به المجتمع.

وهناك نوع ثانٍ من الإنسان الذي يعيش في عزلة نفسية عن المجتمع، يعيش في نفسه ولنفسه.

وليس قتلاً للأمم ولا أفسد لحياتها من أن يسود فيها هذا الشعور الانعزالي، إن الفرق بين شعب وشعب هو فيما بين

الأفراد من تجاوب نفسي وتكافل شعوري، وإنما هو في قوة الترابط الوجداني بين الأفراد.

وداؤنا إنما هو هذا الداء: داء الذاتية وإيثار المصالح الشخصية على الصالح العام، فما انحلت الخلافة العباسية إلّا حين تسرّب إلى الخلفاء هذا المرض الخبيث فجعلوا من دولة الخلافة مسرحاً لأطماعهم، وما هي إلّا دورة من دورات الزمن حتى أصبحت دولة الخلافة مقسّمة إلى دويلات تعرض في سوق المطامع والأهواء، حتى إذا نخر فيها هذا السوس من الداخل، طمع فيها أعداؤها من الخارج على يد المغول والتتار والصليبيين، وكان من نتائج هذا أن أصبحت الدولة في قبضة الاستعمار.

والخلافة في الأندلس كيف ذهبت؟

إن الخلافات الشخصية والأزمات الذاتية هي التي أودت بملك المسلمين في هذه البلاد، وما كانت قوة من القوى تستطيع أن تأتي عليه لو تخلص الحكام والقادة من هذه الأنانية القاتلة[1].

ونجاة الأمم وسعادتها في البصر بأحوال الاستواء والامتياز وإدراك مواضع الاجتماع ومواضع الافتراق حتى يكون سيد القوم خادمهم حيناً وخادم القوم سيدهم حيناً[2].

□□

(1) من الحقل الإسلامي، عبد الكريم الخطيب، ص: 77.
(2) النفحات، عبدالوهاب عزام، ص: 13.

ضريبة الدم والمال

الرجل الذي يعيش لنفسه فقط، لا ينتفع به وطن، ولا تعتز به عقيدة ولا ينتصر به دين.

ولا قيمة لإنسان يكرس حياته لإشباع شهواته وقضاء لباناته فإذا فرغ منها لا يهتم لشيء ولم يبال بعدها بمفقود موجود.

مثل هذا لا يساوي شيئاً في الميزان الإسلامي، والأمة التي تستثقل أعباء الكفاح وتتضايق من مطالب الجهاد إنما تحفر قبرها لنفسها وتكتب على بنيها ذلاً لا ينتهي إلى آخر الدهر.

وما ساد المسلمون إلاّ يوم أن قهروا نوازع الخوف وقتلوا بواعث القعود وعرفتهم ميادين الموت أبطالاً يردون الغمرات ويركبون الصعاب، وما طمع الطامعون فيهم إلّا يوم أن أخلدوا إلى الأرض وأحبوا معيشة السلم(الرفاهية)، وكرهوا أن يدفعوا ضرائب الدم والمال وهي ضرائب لا بد منها لحماية الحق وصيانة الشرف[1].

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2].

❑❑

(1) تأملات في الدين والحياة لمحمد الغزالي، ص: 12.

(2) سورة التوبة، الآية: 24.

الخشوع في الصلاة

ولله در الشاعر حين قال:

ألا في الصلاة الخير والفضل أجمع
لأن بها الآراب[1] للّه تخضع
وأولُ فرض من شريعة ديننا
وآخِرُ ما يبقى إذا الدّين يُرفعُ
فمن قام للتكبير لاقته رحمة
وكان كعبد بابَ مولاه يَقرَعُ
وصار لربّ العرش حين صلاته
نجيًّا فيا طوباه لو كان يخشعُ[2]

□□

يا أُمة ضلت

المفكر الإسلامي الكبير د. يوسف العظم، غني عن التعريف فله باع طويل في الفكر الإسلامي ويشهد له ذلك مؤلفاته القيمة وآراؤه الصائبة في حل المشكلات المعاصرة التي تواجه المجتمع الإسلامي حلاً ناجحاً، وطالما أتحفتنا مؤلفاته بمعلومات نادرة كنا نجهلها أو تجاهلناها فذكرتنا ودفعتنا إلى أمام، والنظر إلى مجريات الأمور نظرة فاحصة

(1) الآراب: جمع الإرب (بكسر ثم سكون) وهو العضو.
(2) تفسير القرطبي (12/ 104).

ومتعمقة ومشخصة لأدواء المجتمع ودائها. وهو هنا في هذه الأبيات القيمة يكشف لنا النقاب عمّا آل إليه المجتمع الإسلامي من تضعضع ومن تفشي الجهل فيها وبعدها عن الدستور الإسلامي، وخنوعها وخضوعها لغيرها من الدساتير الوضعية التي حملت معها كل وسائل الدناءة والعنجهية للقضاء على مقومات المجتمع الإسلامي ومرتكزاتها حتى لا تقف أمام هذه الغزوة جداراً صلباً تمنع عن المجتمع ما يراد لها من ضعف وجهل وفقر وبعد عن الأصالة وأسس التقدم والعمران، والآن جاء دور الأستاذ ليلقي أبياته علينا:

يـا أمـة ضـلّـت طـريـق الـهـدى
تـطـفـئ فـي سـود الـلـيـالـي الـشـمـوع
قـد حَـطّـمـتْ بـالـجـهـل أقـلامـهـا
وقـطـعـت بـالـحـقـد أرحـامـهـا
وبـعـثـرت رايـات أمـجـادهـا
ونـكّـسـت فـي الـعـار أعـلامـهـا
واسـتـسـلـمـت لـلـكـفـر مـذعـورة
وضـيّـعـت فـي الـتـيـه إسـلامـهـا
وألّـهـت جـلادهـا وانـثـنـت
تـسـجـد لـلـسـوط الـذي سـامـهـا
فـكـيـف تـرجـو الـنـصـر فـي غـفـلـة
يـا أمـة تـصـنـع أصـنـامـهـا؟

□□

الـــــاحـــر الأكـــبـــر يـــرنـــو لـــهـــا
مـن بـرجـه الـعـالـي وهـو الـمـطـاع
يـعـلـن عـن إيـمـانـهـا سـلـعـة
رخـيـصـة فـي كـل سـوق تـبـاع
ويـمـســخ الأخـلاق حـتـى غـدا
فـيـهـا الـجـبـان الـوغـد يُـدعـى شـجـاع
واحـسـرتـا يـا أمـتـي كـلّـمـا
أشـرق فـيـهـا ومـضـة مـن شـعـاع
أطـفـأهـا الـسـاحـر فـي غـفـلـة
بـلـهـاء تـطـوي فـي الـظـلام الـشـراع

□□

صـلاتـهـم عـمـيـاء غـيـرُ الـصـلاة
وإذا دعـا الـداعـي أجـابـوا سـواه
قـد ألّـهـوا الـطـاغـوت واسـتـسـلـمـوا
ومـرّغـوا فـي الـمـنـكـرات الـجـبـاه
كـانـوا أُبـاة الـضـيـم لا تـنـحـنـي
هـامـاتـهـم إلاّ لـنـور الإلٰـه

□□

كـانـوا حُـمـاة الـعـرض يـا ويـحـهـم
قـد دُنّـس الـعـرضُ وهـان الـحـمـاة

كانوا رعاة للشعوب التي
ضلّت فكيف اليوم ضلّ الرعاة

□□

يا أمة باعت هداها
وما جاءت بغير الغثّ من كافر
قد أنكرت أمجاد أمس مضى
وما لها في المجد من حاضر
صدّت عن الإيمان في ذلة
تسجد للأفاك والساحر
ويسأل العاقل في حيرة
أما لهذا الليل من آخر
من يرتجي نصراً بلا عُدة
فما له يا قوم من ناصر[1]

□□

تبعية المرأة المسلمة

وليس من الممكن أن نفهم موجات السيطرة على مجتمعاتنا إلاّ إذا لاحظنا مثلاً تبعية المرأة المسلمة في كثير من بلاد الشرق لكل ما يظهر في أوروبا أو أميركا من أزياء، فما إن ترتدي الزي (إحدى العارضات) قصيراً بمقدار سنتيمتر

(1) مجلة التربية الإسلامية، عدد(10) سنة (14)، عام 1970.

واحد حتى تبادر فتياتنا إلى تقصير أثوابهن بمقدار شبر واحد!

والأهم من ذلك: هو هذه السيطرة التي توفرت لملوك الأزياء - وأكثرهم صهاينة - على فتياتنا المثقفات خاصة، حتى كأنهن جميعاً أعضاء في جوقة موسيقية واحدة وأمامهن (مايسترو) كلما أشار بإصبعه أو بعصاه تحرك العازفون والعازفات باتجاه العصا كالقطيع[1].

الأفكار المستوردة

يقول المفكر الإسلامي الكبير مالك بن نبي رحمه الله: لا يجوز لأحد أن يضع الحلول والمناهج، مغفلاً مكان أمته ومركزها، بل يجب عليه أن تنسجم أفكاره وعواطفه، وأقواله، وخطواته مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته، أما أن يستورد حلولاً من الشرق أو الغرب، فإن في ذلك تضييعاً للجهد ومضاعفة للداء، إذ كل تقليد في هذا الميدان جهل وانتحار.

فالفرق شاسع بين مشاكل ندرسها في إطار الدورة الزمنية الغربية، ومشاكل أخرى تولدت في نطاق الدورة الإسلامية[2].

فالأفكار طريق النجاح وهي ركيزة هامة من حياة الشعوب، فلا يمكن لمجتمع في عهد التشييد أن يتشيد بالأفكار المستوردة أو المسلطة عليه من الخارج.

❑❑

(1) الإسلام يتحدى، وجد الدين خان، تقديم د. عبد الصبور شاهين، ص: 9.
(2) مالك بن نبي، مفكراً إصلاحياً.

منطق العقيدة

تنتصر العقائد بين الناس بعد ما تنتصر بين أصحابها، وهذه حقيقة يجب أن يعرفها حملة المبادئ وأن يطمئن إليها نقلة المثل العليا إلى الناس.

فإذا حدث أن وازن الإنسان بين عقيدته ونفسه فرجحت نفسه، أو بين عقيدته وماله فرجح ماله، أو بين عقيدته ومتعه الخاصة فرجحت متعه الخاصة، فمتى حصل ذلك فإن العقيدة أهون لدى صاحبها من كل ما يملك أو هوى وسوف يبيعها في أول مساومة ويتخلى عنها في أول صدام.

أما إذا غالى الإنسان بعقيدته، فسفك دونها دمه، وبذل قبلها ماله وضحى في سبيلها براحة البدن، وسكرة اللذة، وطيب العيش فقد صدق في إيمانه، ووفى لعقيدته، ونجح في محنته، وكسب النصر لدينه والخير لنفسه معاً.

تأخرت أستبق الحياة فلم أجد
لنفسي حياة مثل أن أتقدما

إن هذه الحقيقة ـ انتصار العقائد في نفوس أصحابها ـ تكملها حقيقة أخرى وهي أن أهل الخير، إن فاتهم تأييد أهل الأرض، فلن تخذلهم في كفاحهم المقدَّس قوى السماء! وذلك سر التحدي في قوله تعالى للناس: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ (سورة التوبة، الآية: 40)[1].

❑❑

(1) تأملات في الدين والحياة، لمحمد الغزالي، ص: 103.

سمة الدعوات الحية

يقول العلامة أبو الحسن الندوي في بحث له قدّمه إلى المؤتمر العالمي لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة المنعقدة في المدينة المنورة جاء فيه:

إن ما يتصل بصفات العامل في مجال الدعوة الإسلامية، فإنني أركز في هذا الحديث الموجز على نقطة واحدة، وهو أنه يجب أن يكون الدعاة يمتازون عن الدهماء والجماهير، ودعاة النظم الجديدة: بقوة إيمانهم، وحرارة قلوبهم، وزهدهم في زخارف الدنيا وفضول العيش ونهامة المادة، ومرض التكاثر، وإلّا فإنهم لا يستطيعون أن يؤثروا فيمن يخاطبونهم ويحملوهم على إيثار الدين على الدنيا والآجلة على العاجلة، وتلبية نداء الدين والضمير والإيمان على نداء المعدة والنفس والشهوات.

وسمة الدعوات الحية المخلصة التي تقتبس النور من مشكاة النبوة، وتسير على نهجها أنها تجس نبض المجتمع جساً صحيحاً، أميناً، وتهتدي إلى الداء الحقيقي ومواضع الضعف في جسم هذا المجتمع وتضع إصبعها عليها، وتضرب على الوتر الحساس من غير محاباة أو مداهنة[1].

□□

صفات صاحب الرسالة

الرجل صاحب الرسالة يعيش لفكرته ويعيش في فكرته،

---

(1) مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ص: 73، عدد(4) السنة(9) ربيع الأول، 1397هـ.

فحياته فكرة مجسمة تتحرك بين الناس تحاول أبداً أن تفرض على الدنيا نفسها، وأن تغرس في حاضر الإنسانية جذرها، لتمتد على مر الأيام والليالي فروعاً متشابكة تُظلِّلُ المستقبل وتتغلل فيه، ومن ثم تبدأ الدعوات والنهضات الكبرى برجل واحد ـ هو في بداية أمره أمة وحده ـ يتخيل حقيقتها في رأسه ويحس ضرورتها في دمه ويبشر بها في كلامه ويحمل أثقالها على كاهله ولا يزال، فإذا الأمة التي كان يتخيلها وحده أصبحت حقيقة واقعة تطلع الشمس عليها، هكذا أبلغ النبيون ﷺ رسالات ربهم، وصنعوا الأمم بأيديهم، وهكذا فعل العظماء من قادة الفكر الناضج.

إن أحدهم يضع (تصميم) المجتمع الذي ينشده كما يرسم المهندس على الورق تصميم القصر الذي يريده، ثم لا يزال يشيد الشرفات ويستكمل الأدوات حتى يستوي البناء قائماً شامخاً.

إن أول صفات صاحب الرسالة أنه يؤمن بنفسه ويفكر بخصومه، ويغالي بفكرته ويحقر ما عداها، ويزحزح غيره ولا يتزحزح البتة، وينزل الناسَ على رأيه إن استطاع ولا ينزل على آرائهم أبداً، يصبر على شدة الكيد وعلى مرارة الهزيمة.

❑❑

لا بد من الأعداء

هل يستطيع امرؤ مهما بلغ من صفاء النفس ورقة الخلق أن يعيش في هذه الحياة من غير أعداء؟

نعم قد يوجد أشخاص يعيشون ويموتون من غير أعداء ومن غير أصدقاء كذلك، وهؤلاء وأمثالهم إنما يقضون أعمارهم في الدنيا كالضيف العابر لا يهيئ لنفسه قراراً ولا يترك خلفه أثراً.

أما أصحاب المواهب الكبيرة والرسالات الخطيرة فيستحيل أن يخلو طريقهم من الأعداء المتربصين والخصوم الحاقدين.

□□

ضبط النفس

العكوف على اللذائذ، ومطاوعة الأهواء، وإجابة الرغبات في الدنيا، أمراض تصيب الأمم في عصور الانحلال وتعرضها للهلكة، فهي تذر الفناء ودلائل إدبار السيادة.

* وقد لوحظ من استقراء التاريخ أن الحضارات الكبرى لم يقتلها إلّا الترف، وأن الأمم العظيمة لم يهلكها إلّا البطر، وأن ترك الناس يرتعون في الشهوات رتعَ السوائم لن يَجُرّ في أعقابه إلّا البوار العاجل: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[1].

* لذلك حرص أولو النهى أن تشيع في الجماهير أخلاق الجندية، وتقاليد الخشونة، وأن يتعلموا أخذ الحياة من جوانبها الصارمة ونواحيها الجادة.

(1) سورة الزمر، الآية: 26.

كما اجتهدوا أن يبتروا من المجتمع مظاهر الاسترخاء والتخنث وأن يمنعوا استرسال النفوس مع أسباب اللهو والعبث.

* ولا شك أن ألد أعدائنا وأخطر الناس على نهضتنا أولئك الذين يزينون الرذائل للشبان ويهيجون لدمائهم حب الجريمة ويصورون الحياة لهم على أنها غرائز يجب إشباعها وفرص يجب انتهازها.

* إن أحدّ سلاح في يد الأمم الناهضة هو زهدها من أسباب الترف وإلفها أسباب الخشونة، واكتفاؤها بالقليل الذي تنتجه وتملكه، واستغناؤها عن الكثير الذي ستورده وتلمسه من أيدي الآخرين أعدائها[1].

□□

النفس الإنسانية

في النفس الإنسانية قوّتان: قوة تفكير، وقوة وجدان. وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها.

* فأما أحدهما: فتنقّب عن الحق لمعرفته، وعن الخير للعمل به، وأما الآخر، فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم.

والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين فيؤتيهما حظها من الفائدة العقلية

(1) كفاح ودين، محمد الغزالي، ص: 263، مطبعة السعادة بمصر، 1960.

والمتعة الوجدانية معاً.

فهل رأيت هذا التمام من كلام الناس؟

فسل علماء النفس: هل رأيت أحداً تتكافأ فيه قوة التفكير وقوة الوجدان؟ يجيبوك: كلا، وهكذا لا تقصد النفس الإنسانية إلى جانب من هاتين الغايتين قصداً واحداً وإلّا كانت مقبلة مدبرة معاً وصدق الله: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾[1] فكيف تطمع أن يهب لك إنسان هاتين الطلبتين على سواء؟

فالله تبارك وتعالى هو الذي لا يشغله شأن عن شأن، وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان، وأن يمزج الحق والجمال معاً يلتقيان ولا يبغيان، وأن يخرج من بينهما شراباً خالصاً سائغاً للشاربين، وهذا هو ما تجده في كتابه الكريم حيث توجهت[2].

❑❑

العقل والهوى

لا تصدر الفكرة إلّا واحدة من القوتين المتنازعتين في النفس: إما العقل وإما الهوى، فإذا كانت الفكرة ناشئة عن العقل كانت علماً، وإذا كانت عن الهوى كانت ظناً ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[3] ولكن كيف تتميز الفكرة عن أختها؟

1 ـ بالتأمل الذاتي: الذي يعني توجيه أسئلة إلى الذات كيف

(1) سورة الأحزاب، الآية: 4.

(2) هذا ديننا، محمد الغزالي، ص: 149، مطبعة السعادة بمصر، 1960.

(3) سورة النجم، الآية: 28.

اعتنق هذه الفكرة؟ ولماذا؟ . . . إلخ

2 ـ الفكرة وليدة هوى متغيرة وفق متغيرات الهوى يخبو وهجها، فمثلاً: الشعب الذي يعتنق الأفكار استجابة للسلطة رغباً أو رهباً، تتغير أفكار هذا الشعب كلما تغيرت السلطة، وتضعف أفكاره كلما ضعفت السلطة.

3 ـ والفكرة (ناشئة العقل والعلم) تتميز بخصائص:

أ ـ بأنها ثابتة جازمة لا تقبل الريب إذ أن ذاتها الكشف ومشاهدة الواقع ومباشرة وجدانه.

ب ـ وهي شاملة لا تخصص.

ت ـ إن أحكام العقل تتفق عليها عقول الناس جميعاً.

ث ـ لا تتطور أحكام العقل بتطور الأوضاع، لأن أحكام العقل كاشفة عن الواقع كما تكشف المرآة عن الأشياء.

□□

الناس ثلاثة

1 ـ ابن الشهوات العاجلة.

2 ـ ابن المصالح(غير عارف بموضعها).

3 ـ ابن المصالح العارف بأنها تتمثل في الحق.

الأول والثاني يخطئان ويصيب الثالث الحقيقة.

□□

obeikandl.com

(وقفة)

وإذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل
خلوتُ ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبنَّ الله يغفلُ ساعةً
ولا أن ما تُخفي عليه يغيبُ.

❑❑

الصداقة الحقيقية

فالصداقة في جوهرها: تشابه بين اثنين في النزعات والاتجاهات النفسية والعقلية والخلقية، مع الشعور بود وتقدير متبادلين بين الاثنين. وكما أن الكمال في أتم صورة له غير معروف بين بني البشر، فكذلك شأن التشابه التام أمر غير مألوف ولا معروف بين الأصدقاء[1].

❑❑

الإنسان السليم

الإنسان السليم لا تغتاله الأعراض الطارئة مهما اشتدت وطأتها، قد يسقط في الطريق فينكسر عظمه، ثم لا يلبث أن ينجبر: وقد يصاب بجرح نافذ ثم لا يلبث أن يندمل.

ذلك أن قوة المقاومة في بدنه، ووفرة الحياة المذخورة

(1) ذكريات وكلمات، د. عبد الحميد المتولي، ص: 43، منشأة المعارف الإسكندرية، 1979.

عنده، تجعلانه يتحمل الطعنات والصدمات، فإن استكان لها حيناً لم تمر عليه أيام حتى ينتفض من وعكتها ويستفيق من شدتها، ثم يستأنف سَيرهُ في الحياة كما لم يمسسه سوء. وهناك جسم كَمَن فيه الداء واستشرت فيه العلة يمشي الهوينى على ظهر الأرض وهو يكاد يتهالك وحده! إنه يوشك أن يخر صريعاً قبل أن تنوشه ضربة أو تلقاه صدمة، فكيف إذا اعترضه خصم لدود يبغي له الأذى؟ فالأمم كالأفراد في هذه الأحوال، وقدرتها على تحمل الهزائم المرة والآلام المبرحة ترجع قبل كل شيء إلى ما يستكين في أعصابها من طاقة وما يتدافع في كيانها من حياة[1]. وإذا أحست في كيانها فضلاً من قوة ومزيداً من نشاط اتسع مجال حركتها وامتد نطاق عملها.

وكما أن المرء الواسع الطاقة لا يهدأ بل يصرف الكامن من قواه في أي عمل يواتيه، وقد يبحث عن المشاق إذا لم يلقها في طريقه، فكذلك الشعوب التي تضاعفت أنصبتها المادية أو الأدبية.

إنها لا تنحسر وراء حدودها إلّا ريثما تتجمع في فيضان دافق يكتسح السدود ويحطم الآفاق[2].

❑❑

(1) في موكب الدعوة، محمد الغزالي، ص: 118، ط3، دار الكتب الحديثة، مصر، 1965.

(2) في موكب الدعوة، ص: 20.

وقفة تأمل

خذ القناعة من دنياك وارضَ بها
لو لم يكن إلّا راحة البدن
وانظر لمن ملكَ الدنيا بأجمعها
هل سار منها بغير الطيب والكفن؟

❑❑

شأن الحياة

يروي الأستاذ أحمد أمين عميد كلية الآداب في مصر في خطبة له ألقاها في إحدى الحفلات الجامعية هذه الحكاية القيمة:

يروى أن أحد حكماء الصين كان يمتلك بعض الخيول، وكانت قد جرت عادتهم في الصين أن يطلقوا خيولهم في الصباح ترعى دون راعٍ في بعض المراعي، وكانت الخيول قد اعتادت أن تعود في المساء إلى مسكن صاحبها الحكيم، ثم حدث في أحد الأيام أن عادت الخيول دون واحد منها فجاء الناس يعزون الحكيم في جواد من جياده ويواسونه لافتقاده، فكان رده عليهم: (من يدري لعل في ذلك خيراً). ثم حدث في صباح اليوم التالي حيث أطلق خيوله كعادته لترعى ثم تعود في المساء كعادتها حدث أن رؤي الجواد المفقود وهو يعود وبصحبته فرس فأقبل القوم على الحكيم يهنئونه فكان رده عليهم: (من يدري لعل في ذلك شراً) وفي اليوم التالي ركب ابن الحكيم الفرس فجمحت به فسقط وكسرت ساقه، فجاء القوم يواسونه فكان رده أن قال لهم: (من

يدري لعل في ذلك خيراً). ثم حدث أن نشبت الحرب بين الصين واليابان ونظراً لما أصيب به ابنه من كسر ساقه كان أن أعفي من التجنيد. فجاءت الوفود لتهنئته فكان رده عليهم: (من يدري لعل في ذلك شراً).

ذلك هو شأن الحياة: كثيراً ما يلد الخير شراً والشر خيراً[1]. مصداق قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

□□

بعض أهداف الحياة

وهكذا ترى أن بعض أهداف الحياة، شأنها شأن ظلك: إذا سعيت أو جريت نحوها جرت أمامك ولا تدركها، فاذا وليتها ظهرك سعت إليك وسارت خلفك.

ولو أنا إذا متنا تُركنا
لكان الموتُ غايةَ كلِّ حي
ولكنا إذا متنا بُعثنا
ويسأل ربُّنا عن كل شيّ[3]

□□

(1) ذكريات وكلمات في نصف قرن، د. عبد الحميد المتولي.
(2) سورة البقرة، الآية: 216.
(3) القانون الدستوري والأنظمة السياسية، د. عبد الحميد متولي، ص: 7، ط5، 1972، مصر.

نحن دعاة لا قضاة

إن هذه الكلمة الوجيزة إنما هي تعبير عن منهج إيجابي عملي، ويجب أن يتضح للعاملين للإسلام والغيورين عليه أنهم دعاة لا قضاة.

وفرق كبير بين القاضي والداعي:

القاضي: يجب أن يبحث عن حقيقة الناس حتى يحكم لهم أو عليهم، ولا بد له من أن يصفهم ويعرف مواقفهم ليقضي لهم بالبراءة أو العقوبة، ثم إن موقف القضاء يجعلنا ننظر للناس على أنهم متهمون والأصل أنهم براء.

أما الداعي: فهو يدعو الجميع ويبلغ الجميع، ويعلم الجميع أنه يصدع بكلمة الإسلام يدعو إليها كل الناس، من كان ضالاً فليهتد ومن كان عاصياً فليتب، ومن كان جاهلاً فليتعلم وحتى من كان كافراً فليسلم.

والداعي لا يعمل على عقوبة المخطئ بل يعمل على هدايته، ولا يتعقب المرء ليقتله بل يتبعه ليرده إلى حظيرة الإسلام[1].

❑❑

حسن الاستدلال بالقرآن (ثقافة الداعي)

ومما ينبغي للداعية أن يتحراه ويحرص عليه ويُحكمه:

---

(1) ظاهرة الغلو في التفكير، د. يوسف القرضاوي، ص: 7، ط2، 1985، مطابع المختار الإسلامي، مكتبة وهبة.

حسن الاستدلال بالقرآن وآياته على ما يريد تقريره، أوتثبيته من أحكام وتعاليم وأفكار، فإنه إذا أحسن الاستدلال بالنصّ القرآني، ووضعه في موضعه أزاح كل شبهة، وأخرس كل معارض، فلا دليل بعد القرآن، ولا يحدث بعد كلام الله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾[1]. ولهذا لا يملك المؤمنون أمام الدليل القرآني الصريح إلّا أن يقولوا: آمنا وصدقنا وسمعنا وأطعنا.

وقد أدخل رجل على المأمون كان يمشي في الناس فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، دون أن يكون مأموراً من قبل الخليفة، فقال له المأمون: لمَ تأمر وتنهى وقد جعل الله ذلك إلينا، ونحن الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾[2]، فقال الرجل: صدقت يا أمير المؤمنين، أنت كما وصفت نفسك من السلطان والتمكين غير أنّا أولياؤك وأعوانك فيه، ولاينكر ذلك إلّا من جهل كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[3] وقال رسول الله ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً**» فأعجب المأمون بكلامه وسُرَّ بِهِ وقال: مِثلك يجوز أن يأمر بالمعروف فامض على ما كنت عليه بأمرنا وعن رأينا. وهكذا حين أحسن الرجل

(1) سورة النساء، الآية: 87.
(2) سورة الحج، الآية: 41.
(3) سورة التوبة، الآية: 71.

الاستشهاد بالقرآن والسنة انقطعت حجة الخليفة ولم يجد بداً من إقرار الرجل على ما هو عليه.

وفي مقابل ذلك ، دخل واعظ على المأمون فوعظه وعنف له في القول فقال المأمون: يا رجل ارفق، فإن الله بعث من هو خير منك إلى من هو شر مني وأمره بالرفق: بعث موسى وهارون إلى فرعون فأوصاهما بقوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[1] وهنا كان موقف المأمون هو الأقوى لأن الدليل القرآني كان معه[2].

❑❑

سليب الغرب

لله در الشيخ العلامة عبد الله بن مصطفى النقشبندي وهو يصف بأسلوب رزين قلّ مَنْ يُجيده حالةَ المسلم المتغرب الناسي معارف وحضارة بني جلدته والمقلد للغرب تقليداً عقيماً وقد أعمى ذلك بصره وبصيرته حتى أصبح يرى بمنظارهم ويفكر بعقولهم ويكتب بأناملهم؛ لأنه أحكم هواه ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَىٰهُ﴾[3] وظناً منه أن حضارة الغرب بحلوه ومره أسلم وأنجح لحل معضلات الحياة المعاصرة، ويلقي اللوم والعتب على الإسلام؛ لأنه ـ كما أملوا عليه ـ استنفد طاقاته ولم يعد صالحاً لزماننا، والآن ندع شيخنا الجليل وهو يعلق

(1) سورة طه، الآية: 44.
(2) ثقافة الداعي، د. يوسف القرضاوي، ص: 32، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1979م.
(3) سورة الفرقان، الآية: 43.

ويفند على مقولة هذا المستغرب(سليب الغرب):

يـا أيـهـا الـسـالـي مـعـارف أهـلـه
مـا ارتـاد كـنـز تـراثـه الـمـتـشـعـبِ
لا ذنـب لـلأفـكـار أنـت تـركـتـهـا
إن أنـت بـالأفـكـار لـم تـتـمـذهـب
وذهـبـتَ خـائـرةً قـواك مـقـلـداً
بـالـغـرب ضـلـة ذلـك الـمـتـغـلـب
فـعـمـيت يـا لـهـفـي عـلـيك وحـرقـتـي
وصـددت قـومـك عـن مـنـاة الأصـعـب
رشـداً سـلـيـب الـغـرب إنـك واهـم
لـم يـمْـلِ غـربـك غـيـر فـكـر مـجـدب
لـم يـدرِ أيـة حـكـمـة لـولا الـنـهـى
فـي الـشـرق رف عـلـى جـنـاحٍ مـوعـبِ
صـحّ فـؤادك كـي يـعـود مـشـرقـاً
(شـتـان بـيـن مـشـرق ومـغـرب)[1]

□□

نظرتنا لحضارة الغرب

سئل المفكر الإسلامي اللامع د. يوسف القرضاوي عن رأيه بهذه الحضارة الماجنة والتي تسود العالم اليوم وأبهرت

(1) الغرب نحو الدرب، محفوظ العباس، ص: 291.

كثيراً من المسلمين: أحق هي أم باطل؟

قال: إن ما فيها من الباطل أضعاف ما فيها من الحق ومن باطلها، هذا الغلو الذي جاوز الحد الوسط في كل أمر نجلوه: في تمتيع الجسد على حساب الروح، وفي تقديس العقل على حساب الوحي، وفي الحرص على متاع الدنيا على حساب الآخرة، وفي تدليل المرأة على حساب الرجل، وفي إطلاق الحرية للفرد على حساب المجتمع، وفي إيثار المنفعة على حساب الأخلاق، وقبل ذلك في نسيانها لله تعالى[1]، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[2].

□□

المرأة في الإسلام

ما أحلى تلك الكلمة التي ألقاها السفير العثماني لدى إنكلترا حينما جرى حوار بينه وبين أحد المسؤولين هناك عن المرأة في ظل الإسلام، قال المسؤول الإنكليزي متبجحاً قائلاً في عجب وزهو وفخر فارغ: لماذا تصرون أن تبقى المرأة المسلمة متخلفة معزولة عن الرجال محجوبة عن النور؟ ثم سكت الإنكليزي ظنًّا منه أنه سدد إلى السفير المسلم طعنة قوية وضربة قاسية تجعل المسلم ينطوي على نفسه، ولكن الجواب جاء فوق ما يتصور، أجابه بكل هدوء واتزان، قال: لأن

(1) الناس والحق، د.يوسف القرضاوي، ص: 84.
(2) سورة الحشر، الآية: 19.

نساءنا في الشرق لا يرغبن أن يلدن من غير أزواجهن!! فخجل الإنكليزي ولم يجد جواباً[1].

❑❑

قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله

قال لويس التاسع ملك فرنسا الذي أُسر في دار ابن لقمان بالمنصورة في وثيقة محفوظة في دار الوثائق القومية في باريس: إنه لا يمكن الانتصار على المسلمين من خلال حرب، وإنما يمكن الانتصار عليهم بواسطة السياسة وباتباع ما يلي:

1 ـ إشاعة الفرقة بين قادة المسلمين، وإذا حدثت فلنعمل على توسيع شقتها ما أمكن حتى يكون هذا الخلاف عاملاً في إضعاف المسلمين.

2 ـ عدم تمكين البلاد الإسلامية والعربية أن يقوم فيها حكم صالح.

3 ـ إفساد أقطاب الحكم بالرشوة والفساد والنساء حتى تنفصل القاعدة عن القيمة. وقد أصاب أحد أقطاب المستعمرين عين الحقيقة: كأس وغانية تفعلان في تحطيم الأمة أكثر مما يفعله ألف مدفع، فأغرقوها في حب المادة والشهوات.

4 ـ الحيلولة دون قيام جيش مؤمن بحق وطنه عليه، ويضحي في سبيل مبادئه.

5 ـ العمل على قيام دولة غربية في المنطقة العربية، تمتد ما

(1) مجلة التربية الإسلامية، مقال لفيضي الفيضي السنة(25) عدد(3)، 1988.

بين غزة جنوباً وأنطاكيا شمالاً، ثم تتجه شرقاً وتمتد حتى تصل إلى الغرب[1].

□□

الخطر في الوحدة الإسلامية

ورد في تقرير وزير المستعمرات البريطانية (أورمس غوم) لرئيس حكومته في 19/ 1/ 1938: «إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه، ومن دواعي فرحنا أن الخلافة الإسلامية زالت. إن سياستنا تهدف دائماً وأبداً إلى منع الوحدة الإسلامية أو التضامن»[2].

□□

القرآن والكعبة

وإنك لتسمع الرئيس الإنجليزي(غلادستون) يصرح في علانية في أواخر القرن الماضي: وقف هذا الرجل في مجلس العموم يصيح في أعضائه: «إن العقبة الكؤود أمام استقرارنا بمستعمراتنا في بلاد الإسلام شيئان ولا بد من القضاء عليهما مهما كلفنا الأمر: أولهما هذا الكتاب يعني ـ القرآن الكريم، وكان ممسكاً بيديه ـ وسكت قليلاً ثم اتجه من المنصة نحو الشرق مشيراً بيده اليسرى قائلاً: «وهذه الكعبة».

□□

(1) قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله، جلال العالم، ص: 60.
(2) هموم الداعية، محمد الغزالي، ص: 88.